رمزية المجاهد في شعر مفدي زكريا

د.الطيب بن دحان جامعة طاهري محمد بشار

ملخص:

عاش الجزائري زمن الاستعمار شظف الحياة، تجرع مرارة البؤس والحرمان، لأنالاستعمار الفرنسي كان مخالفا لكل المستعمرين الآخرين، حيث سعى إلى فصل الجزائري عن عروبته، وسلخ شخصيته ليبقى تابعا لفرنسا من وراء البحر.

- لم يتمكن العدو من تحقيق أحلامه مع رجال عقدوا العزم على مخاطبته بلغة النار،جرب العدو كل وسائل التقتيل والتعذيب لكنها لم تجد نفعا مع صناديد العروبة الذين خاضوا معاركهم وفق ما يمليه عليهم الدين الإسلامي، وكان شاعر الثورة مفدي زكرياء من الذين شاهدوا الحرب، فدونها لتكون تذكرة للعاقل، وحصنا منيعا للغافل، ذكر فيها ملامح شهيد الوطن شجاعة ووفاء، وحب الوطن وغيرها من القيم النبيلة التي كانت وراء هذه الانتصارات.

Abstract :

During the French colonial period, the Algerian individual witnessed a period hardships, tasted the bitterness of poverty and deprivation. The French colonist was different all other colonists, because it sought to separate the Algerian population from its Algerian and Arab identity, as well as alter its independent character to remain dependent of its overseas colonist.

The enemy was prevented from achieving his dreams by men determined to address him with the language of warfare. The enemy implemented all sorts of measures from torture to genocide but failed with heroes of Arabism who fought battles as dictated by the Islamic religion. During this period, the poet of the Revolution, Mufdi Zakarya witnessed and recorded the events of the war to remain as a reminder to sensed people, and an impregnable fortress for the oblivious. His poetry describes the traits of the martyr’s bravery and loyalty, his love of the motherland, as well as other noble values that led to these victories.

المنارة للاستشارات

تمهيد:

مرت الجزائر زمن الاستعمار بمرحلة عصيبة ،تجرع خلالها المواطن مرارة البؤس و الحرمان ، لان الاستبداد الفرنسي الذي عاشه كان مخالفا لما شاهدته الدول الأخرى ،أرادت فرنسا طمس هويته و عزله عن عروبته ليبقى تابعا لها من وراء البحر ،كل هذه الظروف أدت بالجزائري إلى اقتحام ساحة الوغى ليسترجع كرامته و يحافظ على عروبته ، و يعيش في وطنه الكـــبير كما يشاء .

هذه المأساة حركت مشاعر الأديب فراح يرصد تلك المعاناة ، عزف على وتر العقيدة و القومية العربية ، حيث التقط جملة من الصور لأسلافه كانت شاهدة على بسالة المحارب ، و وصمة عار لفرنسا التي تعاملت مع شعب أعزل .

إن شهيد الجزائر قدم أروع التضحيات ، صال و جال في رحاب الوغى ، و لم يبال على أي جنب يكون مصرعه ، لم يستقبل الشعب الجزائري الدخيل بالورود و لا بالزغاريد كما كان يعتقد ، بل دخل فوق جسر من الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء لوطنهم المفدى ، استجابة لقوله تعالى : **(و قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)** 1، من هذه الآية الكريمة أستخلص المحارب الجزائري جملة من القيم جعلها خارطة طريق في مواجهة المستعمر الفرنسي .

الصدق و ا لوفاء :

كانت المقاومة شرسة لاسترجاع حريته المسلوبة ، لا سيما و أن العدو كان يهدف إلى تشويه شخصيته ، فبات من واجب الشاعر الدعوة **"إلى الحرية الفكرية ، و إلى سيادة النفس للنفس ، و التحرر من كل شيء خارجي ...فهو يحب الحرية و يعشقها ، لأنه يرى فيها المثل العليا ، و الإنسانية الكبرى ، يرى فيها الوعي الكامل ، و العلم و المعرفة ، و الرقي المتواصل "** 2 خاصة و أن الجهاد باب من أبواب الجنة لا يلجه إلا باسل لبى نداء الوطن .

المنارة للاستشارات

ياجيرة الله ، مدوا للعطاء يدا يا جيرة الله ، في سبيل العلى جودوا

يا جيرة الله ن لبوا صوت أمتكم يا جيرة الله ، عن أوطانكم ، ذودوا 3

شهيد الوطن يتسم بالقيم الاخلاقية من صدق و إخلاص **" لأن من صفات المناضل الثائر ، البراءة و الصدق ، و صفاء النفس من الأكدار و الخطايا التي تتمثل في حب النفس ، و الامتناع عن التضحية في سبيل الوطن و الإنسانية "4** ،بدم الشهيد يصنع المجد ، و بروحه الطاهرة يعز الوطن .

نحن من أبطالنا ، ندفع جندا و على أشلائنا نصنع مجدا

و على أرواحنا نصعد خلدا وعلى هاماتنا ، نرفع بندا

جبهة التحرير ، أعطيناك عهدا

و عقدنا العزم ، أن تحيا الجزائر

فاشهدوا 5

هكذا كانت دماء الشهداء ضمانا للنصر ، و مفخرة للوطن ، فالشهيد **" قدوة لكل مواطن ، و نموذج للإنسان الذي سمت نفسه فوق كل عرض عن من أعراض الدنيا ، فما عاد شيء يغريه سوى الموت من أجل قضيته "6** باع نفسه فداء للوطن ، و اشترى جنة الخلد .

من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه فاستبشروا ، و اسرعوا ، فالبيع محدود

و الربح _ يا ناس – مضمون ، و مدخر في مصرف الله لا في (البنك)مرصود 7

من هنا نبتت في قلبه بذرة الإيمان ، و تشبع بها مصداقا لقوله تعالى **:(يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله و رسوله و لا تولوا عنه و أنتم تسمعون ، و لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون)8.** فاستجابت النخبة الوطنية لهذا النداء .

المنارة للاستشارات

الشجاعة :

لم تكن وطنية الشهيد عابرة ، بل هي متجدرة الأصول ثابتة الأغصان ، أدرك قيمة الحرية ، و العيش في كنفها **" لقد أشرب الجزائري حب الشهادة من الكتاب المنزل ، فارتمى على غمرات الموت غير هياب لها ، و أدرك أن للحرية و الحياة العزيزة مهرا غاليا ، فراح يدفع هذا المهر من روحه ، و قد آمن بأن الحياة عقيدة و جهاد ، و بأن بلوغ المجد لا يكون إلا على جسر من التضحيات ، فراح يقطع هذا الجسر على كبده "9** ، قدم ضريبة الدم ليحمي شعبه ، و يعيش معززا آمنا في وطنه .

حربه لاتقوم على الغارة ، انتقاما من المعتدي ، و لا يثأر جزاء الإساءة لشعبه ، بل هو كريم لا يؤذي غيره ، و هي الصفات نفسها التي تحلى بها الأسلاف منذ العهود الغابرة **" لا تروعه الأهوال ، و لا يتردد في خوض مجامع الأخطار ، و لا يتزحزح**

عن مكانه مهما أحذقت به ، بل يستقبل الموت بصدر رحب ، و يضحي بنفسه في سبيل مبادئه التي يعتقدها ، و تقوي شخصيته كثرة تردده على اقتحام المعارك " 10، لايرضى بالذل و الإهانة ، لا يحب العيش إلا في ظل الحرية .

عاش الشعب في دياجر الاستبداد من خلال عملية التمشيط التي نفذها الجنرال سبيلمان"حيث

شهيد الجزائر لم يكن مجازفا في معاركه ، و لا متخاذلا في ساحة الوغى ، حارب من اجل نعمة الحرية التي حرم منها ، حيث عاش ليلا دامسا كما عبر مالك حداد" **إن الليل مهما يكن ثقيلا ، و مهما يكن رهيبا ، لن يمنع العنادل من أن تغني ، و وما من قوة في العالم أوتيت من المحبة للحرية و الدفاع عنها مثلما أوتينا نحن "11.**

المنارة للاستشارات

جمالها يكمن في البحث عنها ، و السبيل إليها محفوف بالأشواك و المخاطر فهي ليست **" خبزا يؤكل ، و لا ماء يشرب ، و لكن دون بلوغها أهوال ، تشيب منها الولدان ، وأعمال تنفطر لها القلوب "**12 علمها يخضب بدماء الشهداء الزكية ، و منه تفوح رائحة العز و الكرامة ، هكذا تخطى الشعب كل الصعاب ، و هب مسرعا لنيل الحرية التي أينعت و حان قطفها

لا تعجبوا ... فالدهر سجل دورة ما للخطوب ، على الشعوب دوام

و الزرع أخرج في الجزائر شطأه فمضى ، و هب إلى الحصاد كرام 13

بهذه الشجاعة رضخ العدو لمطالب الجزائر ، و هذا بيجو يفصح عن ذلك قائلا : **"مهما يكن لكم جنرال أيما كانت مهارته و شهرته ...تتعرضون دائما للحرب "** 14، مما دفع العدو إلى تضعيف جرائمه ، استعان بالأسلاك الشائكة بعدما عجز التعذيب و التقتيل عن فصل الثورة عن الشعب ، إلا أن هذا التصرف زاد من التلاحم ، و قوى عزيمة الجماهير ، فكان جوابهم **"تريدون أن تبتروا أيدينا ، و نقبل أيديكم ، و تسبونا و نمدحكم ، هذا محال لا يقع ، و لن يقع ، ما دام لنا ذرة من النخوة و الإباء ،و مادام الدم العربي يجري في عروقنا "**15، هذه المعاناة التي عاشها الشعب انصهرت في بوتقة الثورة ، حرك الشاعر النفوس النائمة و كانت الاستجابة

ومن يطلب الكرامة ، و ابتغاها يقدم مهرها المهج الحرارا

نزلنا للجهاد ، و قد سئمنا و عودا في الفضآ طارت بخارا 16

رغم أبشع أناع التعذيب التي تلقاها الشهيد ،إلا أن بسالته و صبره على المحن لم يبح لهم بسر ، و لم ينبس لهم بكلمة ، و أنى يكون له ذلك مع صناديد الجزائر أمثال أحمد زبانا و العربي بن المهيدي الذي نطق بكلمة في وجه السفاح بيجار **"إنني من نوع يعاف الموت ، لن**

المنارة للاستشارات

تأخذ كلمة مني "17، هذه الشجاعة دفعته إلى تحمل كل عواقب التعذيب ليصبح رمزا للوطنية و الفداء تقتدي به الأجيال عبر الاعصر ، ويبعث مجد العروبة من جديد .

ياجيش ، أضرمها بساح الوغى على العدو الغاصب الأجنبي
و صبها نارا على من طغى تبعث بها مجد بني يعرب
و إن بلغت القصد و المبتغى فحقق الوحدة للعرب .18

النزعة الوطنية :

خلق الإنسان ليعيش في كنف الحرية ، و شهيد الجزائر عظيم عظمة ثورته التي أشعل فتيلها بيد ، و حمل غصن الزيتون بيد أخرى ، و يبعث شاعر الثورة بكلمات تبعث روح المواطنة في النفوس ، و تدفع بالمحارب إلى خوض فتيل الحرب و مقارعة الأعداء :

غنى بها حر الضمير ، فأيقظت شعبا إلى التحرير شمر مسرعا
شقت طريق مصيرها بسلاحها و أبت بغير المنتهى أن تقنعا 19

بهذه الروح العالية لم يجد العدو سوى تغيير معاملته مع البواسل ، جرب العدو كل الوسائل قصد إفشال الثورة الجزائرية ، إلا أن إرادة المحاربين و حبهم للشهادة كانت أقوى ، شهيد الجزائر تشبع بالقيم الإسلامية التي وحدت الشمل و حافظت على الشخصية العربية ، لأن الاسلام يحث على **"مقاومة الاستعمار باسم الإيمان و الخهاد في سبيل الله و الوطن "**20 ، و من هذا المنطلق باع نفسه و فاز فوزا عظيما مصداقا لقوله تعالى : **(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعدا عليه حقا)21 .**

المنارة للاستشارات

إتخذ العدو السجون وسيلة ضغط عساه يظفر بنتيجة ولو ضعيفة حتى يلملم جراحه ، و يغطي جزءا من هزيمته ، إلا أن حب الوطن كان أقوى من ذلك ، بل من عمقه كانت الانتفاضة ، تشحن الهمم ، و تعبأ النفوس ، و ترسل القصائد الثورية ،

يا مصنع المجد ، و رمز الفدا يا مهبط الوحي ، لشعر البقا

يا معقل الابطال ، و الشهدا يا منتدى الاحرار ، و الملتقى

أصبحت يا سجن لنا معبدا عليك نتلو العهد و الموثقا

يوم قمـــنا و رفعـــــنا

في السموات البنود

أنـــت ...أنـــت...أنـــت ... يا بـــربـــروس...22

هكذا السجن معقلا للثوار ، و مندى الأحرار ، و على جدرانه ترسم معالم الحرية بدماء الشهداء

صوت الجزائر في الجبال يلالي

ممزوج بالنار ... و الدم الغالي

يدعو الشباب للجهاد العالي .23

شهدت الثورة على بسالة المحاربين ، حققوا النصر بدمائهم الزكية ، و هذه البطولة تقاسمتها المرأة مع أخيها الرجل ، جادت بما تملك ، حليها رهن الثورة ، وروحها فداء الجزائر ، و "فضيلة سعدان " واحدة من اللواتي يضرب بهن المثل حيث **"حصـــــــدتها ذات يوم في أحد شوارع مدينة قسنطينة رشاشة العدو ، و لمن بعد أن أذاقت قوم الجنرال "ماسو" الخزي و المرارة ، فترة طويلة من الثـورة "24** ، قاتلت في صفوف الرجال ، و ألهبت النيران بين الأعداء .

المنارة للاستشارات

بهذا النصر اهداها الشاعر باقة اعتراف و اجلال ، و واصلوا الجهاد بحزم و ثبات .

في صفوف القتال أنا ألهب نارا
من أعالي الجبال أنا أدعو البدارا
في معاني النضال أنا كنت المنارا
و تركت الرجال في جهادي حيارى 25

قدمت المرأة الجزائرية دعما معنويا لأخيها الرجل ، غرست فيه روح النضال ، و حركت فيه النخوة العربية .

أنا أرمي القنابل و المسدس جنبي
أنا أهوى المناضل أصطفيه بحبي
أنا أفدي المقاتل بعيوني و قلبي
و أنادي البواسل حطموا غل شعبي .26

و الشاعر يعيد الخطاب الذي ألقته هند بنت عتبة أمام جهابذة الكفر و الإلحاد ، تحرضهم على مقارعة المسلمين و الثأر لذويها و الانتقام من حمزة رضي الله عنه ، و الموقف نفسه استعملته المرأة الجزائرية مع أبناء الوطن ، فكان صوتها محفزا ، و عيونها سترا و حجابا على البواسل ، هكذا شاركت المرأة في الثورة التحريرية ، و دونها الشاعر حتى لا يطويها النسيان .

شاركت في الجهاد آدم حوا هـ و مدت معاصما و زنودا
أعملت في الجـــــراح ، أنمله اللدن ، وفي الحرب غصـــــنها الأملودا 27

بحبها للوطن ، لبت النداء و خاضت المعارك بكل حزم ، صالت و جالت في ساحة الوغى .

و برزت الكواعب قاصرات فرحن يخضن للموت العبابا 28

المنارة للاستشارات

و عند فشله في السجن ، بات من المؤكد أن يخترع ما هو أفيد ، عساه يظفر في هذه الحرب بشيء ، فجاء التعذيب الكهربائي ، و الضرب المبرح ، لكن الشهيد خيب آماله ، لايخون وطنه ، و لا ينسى ميثاق أول نوفمبر ، حـــتى و إن كان الموت ثمنا لذلك :

أدخلونا السجون جرعونا المنون

ليس فينا خؤون ينثني أو يهون

أجلدوا... عذبوا...

و اشنقوا ... و اصلبوا ...

و احرقوا ... و اخربوا ...

نحن لا... نرهب ...29

و اعتقادا منه أن هذا التصرف يرغم المحارب على التخاذل ، لكن الجزائري يرى الســـــجن مفتاحا لباب الحريـــة ، بل هو **"مدرسة فيها يتعلم المهضومون كيف يقاوم الاستبداد "30** ، وبين جدرانه يوحد الشمل ، ومنه تكون الانطلاقة ، و الضراغم تستجيب لطبائعها كما يقال .

لم يدرك العدو بجرائمه المتعددة ، أنه يزيد من عزائم الجزائريين ، و يرسخ الوطنية في النفوس الثائرة ، يعانق شهيد الوطن الموت دون خوف ولا وجل معتزا باستشهاده :

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا

باسم الثغر ، كالملائك ، أو كالطفل ، يستقبل الصباح الجديدا

شامخا أنفه ، جلالا و تيها رافعا رأسه ، يناجي الخلودا 31

بهذا التحدي ، اختار الشهيد مجاورة ربه ، امتطت روحه الطاهرة مذبح البطولة ، لم يبال بالموت المحتوم ما دام هدفه حرية الجزائر ، وسعادة شعبها :

المنارة للاستشارات

وامتطى مذبح البطولة معراجـــا ، و وافى السماء يرجو المزيد
و تعالى ، مثل المؤذن ، يتلو كلمات الهدى ، و يدعو الرقودا
و اقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض ، إن عاش شعبي سعيدا
أنا إن مت ، فالجزائر تحيا حـــــــــــرة ، مستقلة ، لن تبيدا 32

هذا هو بطل الجزائر الذي أصبح رمزا في البطولة و الفداء ، حب وطنه فوق كل اعتبار .

لقد آمن بشرعية ثورته ، فأضحى يتسامى عن الرذائل ، لا يحمل حقدا لأحد ، وهي سمة إنسانية تشبع بها من دينـه الحنيف .

كيف لا يكون له ذلك ، وهو يقتحم جدار الموت راض بما يخفيه له القدر :

و كانت لابراهيم بردا جهنم فعلمنا _ في الخطب – أن نمضغ الجمرا
و آدم بالتفاح ، ضيع خلده و ماريان بالتفاح نلقي بها البحرا 33

و ينتقي مفدي زكريا ألألفاظ من التراث ليبرز أن المحارب الجزائري يقتحم نار الوغى و لا يبالي ، بل يراها بردا و سلاما ، لأن ثورته مقدسة ، و مطلبه شرعي ، و بها أيضا تسقط أحلام المستعمر " الجزائر فرنسية " ، و يخرج منها نادما منهزما .

هكذا تسترجع الحرية و الكرامة ، و على جماجم الشهداء يبنى صرح الجزائر ، و بعظمتهم يعترف ديغول بالوطن و يرى **" بأن الوقت قد حان لإعطاء الفرصة للجزائريين لكي يعبروا بأنفسهم عن مستقبلهم و يقرروا مصيرهم ..."** 34 .و هو الهدف الذي عملت الثورة على تحقيقه ، بهذه الشجاعة أخذ المقاتل الجزائري يسبح في ساحة الوغى ليعبر إلى جنة الخلد ، بعد يفك وطنه من سلاسل الأغلال ، كما ناشدها شاعرها المفلق من قبل :

سلوى ! أناديك سلوى ! مثلهم خطأ لو أنهم أنصفوا ، كان اسمك الرمق !

المنارة للاستشارات

سلوى حديثك يا سلوى ، يباغمني و الطرف يختان ، لا يدري به الحذق
سلوى ! . أناديك سلوى! . هل تجاوبني سلوى ؟؟ فإن لساني باسمها ذلق
يا لائمي في هواها ، إنها قبس من الجزائر ، و الأمثال تنطبق .35

إن شجاعة الثوار و إيمانهم بالوطنية أدت بالعدو إلى الانصياع و الاستجابة فجاء خطاب ديغول الشهير عام 1960 بأن الجزائر **" لن تسييرها فرنسا و إنما تسير من العاصمة الجزائرية بطريقة مستقلة ، كما أعلن أنه سوف يواصل انتهاج سياسة تحقيق السلم في الجزائر بخطى سريعة و ثابتة "** 36 ، و ما كان يتحقق ذلك لولا حب الوطن الذي أصبح جزءا من كيان المحارب الجزائري يجعله أمانة ليبقى مستقبله مرهونا بإرادة أبنائه .

ياشباب الجزائر هكذا كونوا – خلفا لأسلافكم ، حافظوا على الامانة و صونوا الوديعة و كونوا أوفياء لشهداء الزطن - أو لا تكونوا .

مكتبة البحث :

1 - سورة البقرة ، الآية 190
2- ثريا عبد الفتاح ملحسن ، القيم الروحية في الشعر العربي ص 335
3 - مفدي زكريا اللهب المقدس الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1983 ص 271
4 - حسن فتح الباب مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية ط1 المعرفة اللبنانية 1997 ص 41
5-مفدي زكريا م ن ص 72
6 -احمد ابو حاقة الالتزام في الشعر العربي دار العلم للملايين بيروت 1979 ص 281
7-مفدي زكريا من ص 271
8- سورة الانفال الاية 20
9-احمد ابو حاقة الالتزام في الشعر العربي ص 697
10-علي الجندي شعر الحرب في العصر الجاهلي دار الفكر العربي 1989 ص 94
11-عبد العزيز شرف الوحدة و التنوع في الادب العربي المعاصر ط1 دار الجيل بيروت 1991 ص 291
12-محمد ناصر رمضان حمود حياته و أثاره ط2 الؤسسة الوطنية للكتاب ص 273

المنارة للاستشارات

13- مفدي زكريا من ص 44

14-الجزائر بين الماضي و الحاضر لأندري برينا و أندري نوش إيف لاكوس ترجمة اسطنبول رابح و منصف عاشور ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ص 246

15-صالح خرفي حمود رمضان ص 67

16-مفدي زكريا من ص 131

17-عثمان سعدي الثورة الجزائرية في الشعر العراقي ج 2 ص 151

18-مفدي زكريا من ص 92

19 -مفدي زكريا م ن ص 92

20-مفدي زكريا م ن ص 52

21-عمار بو حوش التاريخ السياسي للجزائرمن البداية إلى غاية 1962 ط 1 دار العرب الاسلامي 1997 ص 561

22-سورة التوبة الاية 111

23-مفدي زكريا م ن ص 92

24-مفدي زكريا م ن ص 70

25-حواس بري الثورة في شعر مفدي زكريا ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994 ص 106

26-مفدي زكريا م ن ص 94

27-مفدي زكريا م ن ص 15

28- مفدي زكريا ص32

29-مفدي زكريا م ن ص 87

30-محمد ناصر رمضان حمود حياته و اثاره ص 262

31- مفدي زكريا م ن ص 09

32-مفدي زكريا م ن ص 10

- 33مفدي زكريا اللهب المقدس 306
- 34عمار بوحوش التاريخ السياسي للجزائر ص 438
- 35مفدي زكريا اللهب المقدس ص 27

36- عمار بوحوش م ن ص 447

المنارة للاستشارات